تعدُّد مظاهر المقاومة
(في شعر محمَّد العيد آل خليفة قبل ثورة التَّحرير 54)

وذناني بوداود
جامعة عمار ثليجي -

الأغواط

تمهيد :

عندما شرعت في البحث عن النص الشعري المقاوم في الأدب الجزائري الحديث ، لفت انتباهي ما قاله الشيخ البشير الإبراهيمي في الشاعر محمد العيد آل خليفة . حين قال (ومن يعرف محمد العيد . ويعرف إيمانه وتقواه ، وتدينه وتخلقه بالفضائل الإسلامية ، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره . إنما هي من آثار صدق الإيمان ، وصحة التخلق ، ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء .

رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها ، وله في كل ناحية من نواحيها ، وفي كل طور من أطوارها ، وفي كل أثر من آثارها - القصائد الغر ، والتقاطيع الخالدة ، فشعره – لو جمع – سجل صادق لهذه النهضة وعرض رائع لأطوارها)[1] فهذه الشهادة من خبير في الرجال وفنون الشعر واللغة ، حفزتني على تتبع المقاومة في شعره ، إنصافا لهذا الشاعر الكبير، وإنزاله المنزلة التي يستحقها بين شعراء عصره . فكان أن تتبعت مظاهر المقاومة في شعره ،قبل ثورة التحرير 54 في هذا البحث المواضع .

في مفهوم المقاومة : يتعدد مفهوم المقاومة ، نظرا لما تحمله كلمة مقاومة من معاني كالنضال والمواجهة والرفض وغيرها من المعاني . فالمقاومة تعني المجابهة بكل الوسائل لحماية النفس أو استرجاع حق ضائع ، أو صيانة عرض أو وطن أو حق من الحقوق . وهي حق إنساني مشروع . وقد حث الدين الإسلامي على مقاومة الظلم والطغيان والتجبر والتسلط . قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وءاخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)[2]

فالمقاومة هي حق يمارسه شعب من الشعوب لرفع الظلم عنه ، وتغيير الوضع السائد إلى وضع جديد ، يسمح له بممارسة حريته كاملة غير منقوصة . فهي ثورة تهدف إلى تحرير الشعب من كل شكل من أشكال الهيمنة والاستعباد والسيطرة ومصادرة الحريات . ومن هنا كانت مقاومة الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي مقاومة مشروعة بواسطتها يتمكن تحرير نفسه من أشكال الهيمنة والاستعباد والقهر .

- وإذا كانت المقاومة تعني التغيير والتحرر، فإن الأدب المقاوم هو الأدب الذي يعبر عن ذلك ، ويمجد الفعل الثوري ويشيد به ، وبكل ما تنجزه تلك المقاومة من تغيير في صالح واقع الإنسان . فالأدب المقاوم هو صوت يصدر عن ذات تنشد الحرية والانعتاق . فسلاح الكلمة قد يكون في بعض الأحيان أشد وطأ على العدو من أي سلاح آخر . ومن هنا فلكل مقاومة أدباؤها الذين يعبرون عنها ويشيدون ببطولات رجالاتها وصمودهم وتحديهم لعدوهم . وعليه

---

[1] - من مقدمة ديوان محمد العيد وأنظر صالح خرفي محمد العيد خليفة ص 131 .
[2] - سورة الأنفال الآية 60

فليس هناك مقاومة لعدو بدون أدباء يشيدون بها وينشرون أفكارها . فالشعر يؤدي وظيفة خطيرة في واقع المجتمعات والشعوب . فهو الصوت السحري الذي يحرك النفوس ويثير غضبها على أعدائها . وكما هو معروف فالشعر (يثير فينا دائما أعمق ما فينا ، لأنه يخاطب فينا مباشرة حقيقة مأساتنا جميعا وينجح في أن يعرينا من الأعماق ، من زيفنا وقلقنا وعارنا ، وأن يعيد ارتباطنا العفوي الصادق بأرضنا وخصائصنا وسماتنا الأولى في براءة وطهر)[3] فالشاعر وعن طريق الكلمة الحماسية يستطيع أن يحرك النفوس ويدفعها للقيام بالثورة . فالمقاومة تفتح أفق الأديب على الواقع الذي يعيشه وبذلك توفر له مجموعة من الموضوعات الجديدة التي تحفزه على القول والتعبير ، وتحرك ما يجول في نفسه .

الشعر والمقاومة :

إذا كان الكثير من المهتمين بالأدب يدركون بأن الشعر يعتبر أداة فعالة من أدوات المقاومة . لأن للنص الشعري المقاوم له خصوصية خاصة ، لتميزه بفيض من الإحساسات والمشاعر الصادقة التي تعبر عن روح الثورة ومواجهة العدو وكشف دسائسه ومخططاته الخطيرة . ومن هنا كان(الشعر المقاوم هو وجود أو حياة ، ومعايشة يومية للواقع ، أو علاقة مع انبثاق الكيانات وانطفائها . وتأخذ هذه العلاقة شكل نفي ، يضم الاحتجاج واللا انصياع ، والإدانة ، والاستفسار ، والاستفزاز ، وأهم ما تتسم به أنها مفارقة للإشراف والتعالي على التاريخ ، وستكتب الاستمرارية للشعر المقاوم ما دام يمارس الضم واحتواء الواقع في الوجدان)[4]

والمطلع على الأدب الجزائري يلاحظ بأن الأدباء الجزائريون قد ارتبطوا بالمقاومة من البداية ، منذ أن وطئت أقدام المستعمر أرض الوطن ، لأن (الحركة الأدبية ذات صلة وثيقة بالوضع الوطني والاجتماعي . فقد كان الأديب دائما ضمير الأمة . وصدى همومها وآمالها . ولسانها المعبر عن معاناتها وطموحها . يرصد جوانب الخير والشر فيها . فيبارك تلك عموما ، ويعرض بهذه ويدينها غالبا . مبشرا بمثل العمل والمحبة والوفاء ، داعيا إلى سعادة الإنسان وصون كرامته ، وكرامة وطنه ، معلنا عداءه لكل أشكال الظلم والقهر وكل أساليب المصادرة التي تتعرض لها حرية الأفراد والأوطان)[5] فالشاعر الجزائري كان أيام المحنة يتحسس بقلبه هموم ومشاكل الأمة ، فقام منافحا عليها بشعره ، الذي خلد فيه مآثرها. فـ(الشعر الجزائري قد قام برسالته أحسن قيام . دافع عن الكيان الجزائري في عقر بيته ، واهتم بالأحداث المؤلمة التي ألمت بالعرب ونادى أيضا بمؤازرة المظلومين حيثما كانوا)[6]

فالأديب الجزائري كان دائما في مقدمة الصفوف مدافعا عن حرمة الوطن ، يستنهض أفراد المجتمع لإحداث قوة فاعلة تواجه العدو . وبفضل مواقفه من الاستعمار وكشفه مخططاته الرامية إلى استعباد الشعب الجزائري ومصادرة حريته . مهد الطريق للمقاومات المتلاحقة (فقد عبأ الشعراء كل طاقتهم من أجل الوطن الذي حاولت فرنسا سلب شخصيته ، ومسخ هويته ، فانبرى الشعراء كغيرهم للدفاع عن الوطن وحراسة قيمه ومثله التي ورثها عن آبائه

---

[3] - مازن النقيب شعراء الأرض المحتلة وراشد حسين مجلة الموقف الأدبي ع1981/118 ص 92 .

[4] - عبد الحميد جيدة الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر مؤسسة نوفل ط1980/1 بيروت ص 38

[5] - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ديوان المطبوعات الجامعية 95 ص 62

[6] - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري ص 311 .

وأجداده ، ووقفوا كالأطواد الشامخة في وجه تيار التفرنس والاندماج يصارعون المد الاستعماري بجميع وجهه الظاهرة والمقنعة)[7] ومن هنا لعب الشعر دورا كبيرا في إثارة الثورات ، فهو المحرك للنفوس ، الأمر الذي دفع الفرد الجزائري إلى المواجهة والتصدي للعدو ، فليس هناك مقاومة أو ثورة بدون شعراء .

وبذلك أحيا الشاعر بشعره في نفوس الجزائريين البطولة وحب الوطن وروح التضحية من أجله . ومع ظهور الفكر الإصلاحي الذي لعب دورا كبيرا في تهيأة الشخصية الجزائرية من خلال ترسيخه للقيم الوطنية الأصيلة، أصبح الشخص الجزائري مهيأ للتعبئة السياسية والنضال والمقاومة وتحمل مخاطر الثورة ، والدفاع عنها . فقد (كان الشعر دائما بالمرصاد لكل الوعود الكاذبة والمزاعم التي يطلقها العدو ضد الشعب وكذلك أعوان الاستعمار ومن يسيرون في ركابه)[8] فالنص الشعري المقاوم الذي واكب انتفاضات الشعب الجزائري هو نص حي مكتنز بالحقائق التاريخية المتجددة بتجدد الزمان والأحداث . وبعبارة أوضح نستطيع أن نقول أن النص الشعري المقاوم ، هو نص فاعل نص متمرد على الواقع المأساوي الذي يعيش فيه الفرد الجزائري ، لذلك فهو نص منفتح على تعدد القراءات والتفاسير، حسب متغيرات الزمن ، والرؤية الفكرية لكل متلقي له .

المقاومة في شعر محمد العيد :

إن الذي يطلع على شعر محمد العيد آل خليفة ، يجد أن المقاومة في شعره قد شملت موضوعات مختلفة ، ولم تكن مركزة في قضية واحدة ، لأن اهتماماته كانت موزعة على كل القضايا التي تتعلق بالوطن وبالعقيدة وبالهوية . لذلك يعتبر من أبرز شعراء المقاومة البارزين الذين غلبت على شعرهم مظاهر المقاومة . فهو في كل قصيدة يبدعها يحاول أن إيقاظ الهمم من أجل الشعور بالحياة الكريمة ، وتجاوز الأخطار التي تحيط بالأمة. فقد عمل على تهيئة النفوس لتغيير الواقع والتخلص من مآسيه وهمومه . (وكان إلى جانب ما عرف به من شدة غيرته على الأصالة القومية وحرصه على مقومات شخصية الأمة ، واسع الأفق متحرر الفكر ، متطور النظر ، بعيدا عن كل تعصب ، متفتحا على التجارب الإنسانية ، داعيا إلى الإفادة منها ، ومن كل منهج يحتم قيم التراث القومي ، ولا يمس مقومات الشخصية الإسلامية العربية ، ويهدف إلى بناء الحاضر والمستقبل على أسس من أمجاد الماضي التليد .)[9] وقد تناول قضايا الأمة بإحساس صادق وإيمان قوي بقضيتها . فكان لشعره الأثر القوي في تحريك النفوس وتبصير الأمة بمخططات العدو ، والاستعداد لمقاومته . يقول :

حثوا العزائم وأصدقوا الآمالا إن الزمان يسجل الأعمالا
وشهادة التاريخ أوثق حـــجة تجلو الأمور وتكشف الأحوالا
فتدارسوا التاريخ وألتمسوا به للنشء رمزا عاليا ومثالا
إن الزمان بكم أهاب مـــــؤذنا في فجر نهضتكم ففاق بلالا
يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم فالعمر ساعات تمر عجالا [10]

---

[7] - كمال عجالي أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته وشعره ديوان المطبوعات الجامعية 1991 ص 149/148

[8] - عبدالله الركيبي الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية ونقدية) ديوان المطبوعات الجماعية .94 . ص 155

[9] - محمد بن سمينة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 ص 39/38 .

[10] - الديوان ص 339

فبمثل هذه المواقف الشجاعة قاوم محمد العيد هجمات العدو على الدين الإسلامي ، وعلى اللغة العربية . كما قاوم هجماته على تاريخ وشخصية الأمة و هويتها . لأنه من الشعراء الذين يدركون حق الإدراك الرسالة النبيلة للشعر ، وأن تلك الرسالة لا يمكن أن تؤدي دورها إلا إذا تمت تأديتها على أتم وجه وبمسؤولية كاملة . فتكون نتائجها ايجابية على أفراد المجتمع . ومن ثمة كانت قصائده كانت قصائد مقاومة .

يقول في إحدى قصائده :

وقفت به أستنهض القوم صادعا بإنذارهم والحر بالحق يصدع
أجاذب حبل الشعر حتى يعينني عليهم وحبل الشعر عاص وطيع
يعاندني طورا فيرفض دعـــــــــوتي ويسلس لي طورا فأدعوه فيسمع [11]

فالشاعر هنا يلفت الانتباه إلى دور الشعر في تحريك دواخل أفراد المجتمع نحو الهدف المنشود . فكان أن قام بإثارة النفوس وتحريضها على الثورة والتمرد على واقعها المظلم ، وهدفه الأول من ذلك بعث هوية الشخصية الجزائرية متمثلة في الإسلام والعروبة . كما أدرك بأن مقاومة العدو لا تؤتي ثمارها ، إلا إذا كان الشاعر منصهرا في واقع مجتمعه ، ومدركا لمخططات عدوه ومسلحا بوعي سياسي وفني ثوري . كما كان يدرك جيدا دور الشعر في توعية الجماهير . فقد رافق بشعره مرحلة طويلة من مقاومة الشعب الجزائري للمستعمر الفرنسي وقد عبر عن ذلك (بلغة الود الصادق والرغبة الجادة في التبليغ ، لا لغة الزخارف والأصباغ التزيينية واللهو اللفظي والشعوذة الفكرية والأيديولوجية .)[12]

وقد تركزت المقاومة في شعر محمد العيد في المواقف التالية :

1 - نصرة الدين الإسلامي : عمل الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدام عساكره على محاربة الدين الإسلامي ، واستعمل لذلك كل ما يملك من قوة . فكان الشعب الجزائري بالمرصاد لكل مخططاته . وفي خضم هذا الصراع أدرك الشاعر بحسه المرهف بأن الشعر هو سلاح من أسلحة المقاومة ، ولا بد من استغلاله لتحريض الشعب على التمرد ومقاومة العدو . فكان محمد العيد في مقدمة الشعراء الذين تصدوا للمخطط الرهيب للعدو مدافعا عن عقيدة شعبه . وحاثا لأبناء وطنه على التمسك بالدين الإسلامي .

تلاءم في الدين الحنيفي شمـــلنا فبات قريرا شمـــــــــــــلنا المتـــــــلاحم
أبـى الله إلا أن يضـــــم قـــــــــلوبنا إليـه وأنـف الكـــــــــفر خزيـان راغـــم
عطاء لنا من واسع الملك واسع وفضل لنا من دائم الملك دائـــــم
لقد شد بالإيمـان عقـــــد قلـــــــوبنا وليـــــس لعـــــقد شـــــده الله فاصـــــــم
وبوأنا في العالمـــــــــين مبـــــــــاءة مباركـــــــة كالخـــــــــلد لولا المـــــــزاحم
رياض دنت للطامعين قطوفها فلم يمتنع منهم عن القطف طامع

---

[11] - الديوان ص 262

[12] - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ص 69

هلم نذد عنها جـــــــوائح جمـــــــة تهددهـــــا من حـــــــــولنا وتهـــــــاجم

لقد كانت الأجداد أسدا ضراغما بها فهل الأحفاد أسد ضـــــــراغم ؟

إلى الحق ولوا أيها القوم وجهكم إلى الحق لا يأخـــــــذكم فيه لائم [13]

فالشاعر لم يدخر جهدا في تنبيه أبناء وطنه إلى ما يحاك ضد عقيدتهم الإسلامية . و(يظهر أنه يفهم اهتمامات الدين الإسلامي كما هي على حقيقتها ، فهما شموليا واسعا ، يدخل في نطاقها الفرد وحاجاته ، والمجتمع وقضياه ، والوطن وهمومه ، والأمة وتطلعاتها .)[14] ولذلك فهو يستنهض طلاب العلم للدفاع عن العقيدة والتمسك بها .

يا معشر الطلاب هل من آخذ بالذكر أو متمسك بعصامه؟

فتشـرفوا بالأخـذ مـــــــــــــن آدابـه وتعرفـوا بحـــــــــــلاله وحـــــــــــرامه

ولكـل شـيء فـي الحـــــــــــــياة أذيـة وأذيـة القـــــــــرآن مـن أقوامـــــــــه

يا معشر الطلاب هل من ناهض بالشعـــــــــــب حر حافظ لذمامه

أو باعث في الشعـــــــب روح إباية منكم فموت الشعب في استسلامه [15]

ويرد على المتطاولين على الإسلام .

هيهات يخزى المسلمون ودينهم علم الخلود يظلل الأقطارا

قولوا لمـــــــن راش النبال لصـــــيده ألق النبال فإن صيدك طارا

أجدادكم خطوالكم الخطط العلا ما بالكم لم تقتفوا الآثارا ؟

ما بالكم لم تقلعوا عن وهمـــكم وتحرروا من قيده الأفكارا

كونـــــوا على المتعـــــززين أعزة كونوا على المتكبرين كبارا

كونوا الجبال الراسيات منـــاعة كونوا الحصون الحاميات ذمارا [16]

ويؤكد على استنهاض النفوس في نص آخر قائلا :

أراك أخي مازلت وســــــنان حالما تيقظ إلى كم أنت وسنان حالم ؟

تيقظ ففي دنياك أعظـــــــم نهضـــــة تضيق بمعناها اللغى والتراجم

وجاهد فإن الحـــــــــر فيها مجـــاهد وقاوم فإن الحر فيـــــــــها مقاوم

وقم فابن ذكرا عالي الصيت ماجدا كريما أواسيه الرجال الأكارم

ولا تأس إن صادفت في الناس هادما له فسيبني الله ما هو هادم

سيغنيك حكـــــم الله عن حكـــــــم غيره وحسبك أن الله بالحق حاكم [17]

فالشاعر في صموده ومقاومته كان مدفوعا بوعيه بحقيقة المستعمر وزيف مخططاته من جهة ، ومن جهة ثانية بوعيه بصلابة مجتمعه وتصديه لكل تلك المخططات . فهو يؤمن

---

[13] - الديوان ص 136/135

[14] - محمد بن سمينة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003 ص 16.

[15] - الديوان ص 90

[16] - الديوان ص113

[17] - الديوان 139

إيمانا راسخا بأن النصر في الأخير سيكون لأبناء وطنه مهما كانت قوة المستعمر وجبروته وتسلطه ، لأنهم يدافعون عن قضية عادلة . فمحمد العيد يستمد تجاربه وصوره من واقعه المر المحكوم بالقهر والظلم الاستعماري .يقول :

فيا أيها الشعب احتمل كل محنة ولا تك مرتاعا حليف الـــــــــنواح
وكن شامخا كالطود إن جل حادث بخسف ديار أو بعصف رياح
ولا تكن عن صوت الإغاثة معرضا لبذل نوال أو لضمد جـــــــــراح
وطر في سماء الأ ـــــــــقوياء محلـــــقا ولا ترض أن تبقى كسير جناح
فخذ بحبال الرشد إن رمت عصمة فإن حبال الغي غير صحاح
وأقدم على الأخطار في الحـق إنني أرى الفوز للمحجام غير متاح
وسر في ركاب المخلصين فإنهم يبؤون في العقبى بكل نجاح [18]

ومن هنا نجد أن الشاعر قد استشعر أن الكلمة هي الأداة الفعالة ، التي تحرك النفوس وتستنهض الهمم ، ولكنها لا تحقق ذلك إلا إذا صبت قالب شعري . ومن خلال هذا التصور جاء النص الشعري المقاوم لمحمد العيد ، نصا يتحسس آلام الأمة محاولا جبر كسرها من خلال شحن نفوس أبنائها بروح الثورة والمقاومة .

وهذا الموقف جاء نتيجة معايشة الشاعر لما يحدث في الواقع ، باندماجه فيه . فهو يعيش حياة مجتمعه متأثرا بكل ما كان يواجهه الفرد الجزائري يوميا من معاناة ومصائب وهموم ومظالم ومصادرة للحرية ، مؤازرا و متفاعلا معه . الأمر الذي مكنه من التعبير عن ذلك الواقع بكل صدق .

أخشى على الشعب هلكا يبـــــــيده واجتـــــــــــياحا
من ألســـــن قاذفـــــــــــات تروى القبيح فصاحا
وأنفـــــــس خائنـــــــــــات تهوى الخنى والسفاحا
ومن قوانيـــــــــن جـــــور سلت عليها صفاحا
ومن شقاء ملـــــــــــح غـــــدا علـــــيه وراحـــــا [19]

من خلال هذا الموقف الواعي بكل أساليب الصراع ، يحاول الشاعر استنهاض القوة الكامنة في شعبه لمواجهة مخططات العدو الهادفة إلى تحطيم مقوماته العقدية المتمثلة في العقيدة الإسلامية .

يا شعب قم على الهمو م والشـــــــــؤوم ثائـــــــــرا
يا شعب جد الجـــــد فانـ ـهض واكسب المفاخرا [20]

فاندماج الشاعر في واقع مجتمعه بأحاسيسه وقلبه وعقله ، يدل دلالة واضحة على وعيه العميق بما تعانيه الأمة من محن . وبمثل هذه المواقف تتهيأ السبل لخلق الفرد المقاوم الذي يخافه العدو ويحسب له ألف حساب .

ومن هنا يظهر لنا الدور الذي كان يقوم به محمد العيد من مجابهة لمخططات العدو الفرنسي من جهة . ومن جهة أخرى بعث قوة المقاومة والحدي والإسرار في النفوس من أجل

---

[18] - محمد بن سمينة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003ص78/77
[19] - الديوان ص 47
[20] - الديوان ص 61

استرجاع الحقوق المهضومة ولو بالقوة . فقد كان يدرك ما للكلمة من قوة تأثير في النفوس ، ولذلك أشهر سلاح شعره في وجه العدو الفرنسي .

فقم يا ابن البـــــــلاد اليوم وأنهض بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البـــــــــلاد لكل لـــــص تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر في المنايا تظللك البنود أو اللـــــحود [21]

إن مجازر 8ماي 45 الأليمة قد غيرت مجرى التاريخ كما غيرت في عقلية الفرد الجزائري . فكان لها الدور الكبير في تغير رؤية الشاعر من شعر الدعوة و النضال السياسي إلى شعر التحريض على الثورة . لأنه أدرك بأن ساعة الانتقام من العدو الفرنسي قد حانت ، وأن هذه الأحداث الدموية والمجازر الرهيبة قد كشفت عن الوجه الإرهابي الدموي للاستعمار الفرنسي . وفي نفس الوقت هيأت الفرصة لتوحيد الشعب الجزائري ضده .

فاندفع محرضا محرضا على الثورة . فقد(كانت تلك الأحداث على مدها وجزرها ، واعتدالها وتطرفها أكبر هزة للفكرة الوطنية)[22] يقول محمد العيد مستنهضا أبناء وطنه :

فظائع ماي كذبت كل مـــزعم لهم ورمت ما روجـــــوه بإفلاس
ديار من السكان تخلى نكاية وعسفا وأحياء تســـــاق لأرمـــــاس
ومعتقلات في العـــــــــراء مبيدة عليها لصوص في ملابس حراس
فيا لك من خطب تعذر وصفه فلم يجر أقلام به فـــــــوق أطراس
ولا خير في عد المظالم وحدها إذا لم نبن عن مرهـــــــفات وأتراس [23]

فبعد تلك المجازر الرهيبة أيقن الشاعر (أن الشعب دخل في هذه الفترة منعطفا جديدا في صراعه مع الأعداء بما بدأ يقربه من موعد تفجير ثورته .)[24] فيرشد الشاعر أبناء وطنه إلى الطريق الصحيح قائلا :

سئمنا من الشكوى إلى غير راحم وغير محق لا يدين بقسطاس
وما وعدهم إلا ســـــــراب بقيـــــــــعة وما عهدهم إلا مداد بقرطاس
فيا أيها المستعمرون تنـــــــــــزهوا ولا تسموا وجه الحياة بأرجاس
ولا تطمعوا أن تستلـــــــــين قلوبنا فتلك قناة لا تليـــــن لجساس
ويا أيها الشعب المروع لا تضق بدنياك ذرعا وأطرح خلق الياس
وقل للذي آذاك لا وصل بيننا وموعدنا العقبى فما أنا بالناسي [25]

فهذا الموقف الشجاع كان القصد منه تحريض الجماهير على مقاومة العدو وعدم الخضوع له مهما كان بطشه وتجبره .وأن طريق النصر قد أصبح معبدا بتلك الأرواح التي أزهقت ظلما وعدوانا .

ورغم الجراحات المؤلمة التي أصيب بها المجتمع الجزائري ، إلا أنه قد خرج منها أكثر صلابة وأقدر على المقاومة والنضال من أجل تحقيق النصر في المستقبل القريب . فالنص

---

[21] - الديوان ص 305/304
[22] - صالح خرفي الشعر الجزائري الحديث ص 219/218
[23] - الديوان ص 327/326
[24] - محمد بن سمينة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 ص 98 .
[25] - الديوان ص 327/326

الشعري المقاوم جاء ردا على تلك الأعمال الإجرامية التي قام بها الاستعمار الفرنسي وما تعرض له الشعب الجزائري عبر قرن من الزمن من ويلات ومصائب ومحن لا تعد ولا تحصى . و(كان الشعر بالمرصاد لكل الوعود الكاذبة والمزاعم التي يطلقها العدو ضد الشعب وكذلك لأعوان الاستعمار ومن يسيرون في ركابه)[26]

فمحمد العيد كان من بين الذين خبروا دسائس الاستعمار الفرنسي ، لذا كانت مواقفه واضحة ، انعكست في تصديه للعدو ، ومواجهته لمخططات الرهيبة ، و استنهاضه لأبناء وطنه للقيام بالمقاومة .

الأسر طال بكم فطـــــــال عناؤكم فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا حرية تحمـــــــيه واستقـــــــلالا
لا أمن إلا في ظـــــلال مرفـــــرف حر لنا عـــــــال ينير هـــــلالا

[27]

فالشاعر يكشف الأساليب ألا إنسانية للعدو من أجل إخضاع الناس وإذلالهم وسلب حريتهم . وهذا الموقف الصامد الصادق هو مظهر من مظاهر مقاومة الشاعر للعدو فقد كشف زيف مخططاته التي حاول من خلالها تظليل الجماهير وخداعها وإيهامها بأحلام لا تحقق أبدا . فهو يعمل على تسليح أفراد مجتمعه بالكلمة الواعية القادرة على مواجهة العدو والصمود أمام مخططاته وجرائمه الوحشية . (فقد سئم الشعب حياة الذل وضاق بهذه الأغلال . وقد كثرت دسائس الاستعمار ومكره . فلم يبق إلا طريق النضال . فلا يحقق نصره وعزه بالهدوء والاتزان . فهذه الوسيلة تعتبر عند الاستعمار جبنا وضعفا .)[28] فوقوف الشاعر إلى جانب شعبه كان نتيجة اصطدام الشاعر بالواقع المأساوي الذي كان يعيشه الفرد الجزائري تحت وطأة المستعمر الفرنسي ، وما كان يعانيه من مصائب لا تعد . ومن هنا (أصبح لزاما على الشعب أن يعيد النظر في نفسه وأن يقطع الأمل في أي إصلاح لحاله يأتيه من فرنسا ، وراح يتلمس بين جنبيه نفسا عصامية ، تبعثه من جديد في دنيا المتناقضات وتخلقه خلقا جديدا في حياة دخيلة كادت تعمي كل المقومات الأساسية للشعب وتطمس معالمها .

فاتجهت العناية إلى بعث الذاتية الصميمة ، وإذكاء النخوة والاعتزاز بها ، وان أصبحت في مهب العواصف .)[29]

2 - **بعث التاريخ وتقوية الشخصية الوطنية** :محمد العيد من صنف الرجال الذين يدكون ما لبعث التاريخ من أهمية كبيرة في استنهاض همم الشعوب ، وإعادة بناء مجدها . فاستلهام العبر من التاريخ هو الذي يحرك النفوس نحو المقاومة . فحينما يتحسس الشاعر واقع مجتمعه المر ، يجد نفسه مجبرا على استنهاض الهمم من خلال العودة إلى التاريخ لبعثه من جديد ليكون مشعلا ينير درب الجماهير نحو الحرية والمستقبل . وقد طبق ذلك الشاعر ميدانيا ، حيث ظهرت مظاهر المقاومة في شعره جلية لا لبس فيها ، مما أكد دوره الحقيقي في التبشير بثورة التحرير المجيدة التي خلصت الشعب الجزائري من العدو الفرنسي .

---

[26] - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ص 155.
[27] - الديوان ص 339
[28] - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ص 289
[29] - صالح خرفي محمد العيد خليفة ص 120 .

فيا شعب لا يحـــــــــزنك أنك تبتلى وأنك تقصى عن علاك وتقصر
فثابر على الحق الذي أنت طالب فإنك في تضييعه لست تعذر[30]

ويقول في قصيدة أخرى :

فردوا مجد ماضيكم وحوطوه بأرصاد
وقوا أنفسكم نـــا ر عداوات وأحقاد
يزيد الخصم ايقادا لها من بعد إقاد [31]

فالشاعر يحذر قومه من الخلافات التي تمكن العدو من بسط نفوذه على الجميع ، فالخلاف مهلكة ومرض ليس له دواء ولذا كان تحذير الشاعر من ذلك .

نحـــــــن للصـــــــــدر وإن خلفـــــــــونا فلنـا فـي الأولـــــــين رعـــــــــيل

لا تخف في جانب المجد موتا فهو موت بالحـــــــياة كفـــــيل
من يعيش حرا على الأرض يوما فله في الناس عمر طويل
قد رفعـــــــنا راية المجـــد علـــــيا وبنا للمـــــــجد جد الرحـــــــيل

[32]

3 - **الدفاع عن اللغة العربية** : أدرك الشاعر ما للغة العربية من دور في بناء شخصية الفرد الجزائري ، كما أدرك ما كان يخطط له الفرنسي من البداية فقد عمل على محاربتها محاولا القضاء عليها . ومن هنا كانت مقاومته لثقافة المستعمر ، الدخيلة على مقومات الشعب الجزائري . من أجل استرجاع الشخصيته المفقودة .

بنـي وطنـي أعلـوا المـــــــــدارس تعلكـم بتعلـيم جهـــــــال وإرشـاد ضـــــــــــلال

وصونوا بها الفصحى التي بكتابكم أشادت ببرهان وساغت كسلسال
وهـــــزوا مشاريـــــع الجزائـــــــــــر إنـــــــــــها تنـوء بمـرأى منـــــــكم تحـــــت أثـــــقال

بني وطني لا خير في كل معرض عن الشعب منكم واهن النفس بطال
بني وطني من كان للشعب فاديا فكيـــــلوا له البشرى بأعظـــم مكـــــيال

[33]

فالشاعر يحث قومه على التمسك باللغة العربية لغة القرآن ،وبناء المدارس الحرة ، لمواجهة المدارس الفرنسية فقد(واجه المواطن الجزائري محاولات التجهيل وطمس اللغة وتراثها ، بتمسكه بالحضارة الإسلامية ومقوماتها الروحية وتشبثه باللغة العربية وإن كان يجهلها أو يتعثر لسانه في التعبير بها)[34] كما أدرك الشاعر بحسه الوطني أن تعلم اللغة الفرنسي ، قد يكرس عبوديته للفرنسيين ، و يفقد الجزائري حريته وشخصية وإنسانيته . وقد لاحظ أحد

---

[30] - الديوان ص 160
[31] - الديوان ص 78
[32] - الديوان ص 131
[33] - الديوان ص 127
[34] - نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ص 247 .

الباحثين العرب أن (شعراء الجزائر كانوا لا يفصلون بين الدعوة الوطنية المتحمسة لكيان جزائري وبين الدعوة إلى تعميق صلة هذا الوطن بالعروبة والإسلام ، كما كانوا لا يفصلون بين مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام ، فبالفطرة ثم بحكم ثقافتهم العربية الإسلامية التي تلقوها في جامع الزيتونة كانوا يدركون إدراكا عميقا أنهم ينتمون إلى الحضارة العربية الإسلامية)[35] وقد أكد الشاعر في الكثير من قصائده على الانتماء القومي للشعب الجزائري للعروبة والإسلام .

و ما نحن إلا من سلالة يعرب عبد مناف جدنا وبنو كعب

فالشاعر يعتبر (العروبة هي السمة الأولى من سمات الكيان الجزائري ، وأن استنفار المشاعر والتذكير والتلميح المستمر للعروبة إنما هو ضرب من الإحياء الدائب والتفكير المطرد في مقومات هذا الكيان .)[36] يقول :

أفديك بالقول الذي ليـــــس يفترى وأمحظك النصح الذي ليس ينكر
صل العرب العرباء واحم لسانهم فإنك من أصلابهم تتحدر [37]

بل أكثر من ذلك أن العروبة هي الدرع الذي يقي الشعب الجزائري من الذوبان في الكيان الاستعماري .

(وبقدر ما كان الاستعمار عنيفا في الجزائر كانت المقاومة أشد صلابة وإصرارا ، ولم تستسلم الجزائر يوما أو تخدع بأساليب فرنسا الثقافية في التغريب والعزل أو التجنيس والإدماج . وفشلت كل المحاولات)[38]

4 - **مقاومة فكرة الاندماج** : لقد روج الاستعمار وأذنابه كثيرا لفكرة الاندماج . وحاول بكل الطرق والوسائل أن يجعل من الجزائر جزءا من فرنسا . إلا أن الشعب الجزائري قاوم ذلك بكل ما يملك من جهد وكان الشاعر محمد العيد في طليعة المقاومين بشعره .

أبت السياسة في الجزا ئر أن نعامل كالبشر
ولعل من نظم السيا سة أن نغش وأن نغر
ولعل منها أن يدس لنا ونجـــــــــــلب للحـــــــفر
ولعل منها أن يبس لنا لنجـــــــــلب كالبـــــــــقر
ولعل منها أن نما طل كي يساورنا الضجر [39]

فالشاعر يكشف مناورات فرنسا التي تهدف من ورائها إلى مسخ شخصية الفرد الجزائري بعد أن تجرده من هويته العربية الإسلامية . كما كان واعيا بالتغيير ، الذي سيحدث في المستقبل ، والذي يحمل في باطنه التخلص من العدو الفرنسي . ولذلك قرر أن يدفع بعجلة التغيير إلى الأمام من خلال الكلمة المقاومة المعبرة عن ما يجول في خاطر الفرد الجزائري . من أجل خلق وعي نضالي ، يؤمن بحقيقة التغيير الجذري للوضع القائم . ولكن الوعي النضالي لا يتحقق إلا إذا فجره نص شعري راسخ الجذور في المقاومة .

---

[35] - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر دار الجيل ط2005/1 بيروت ص47
[36] - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر ص 55
[37] - الديوان ص 159
[38] - أنور الجندي الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع مطبعة الرسالة القاهرة 1959ص90
[39] - الديوان ص 307

فـ(في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الجزائر أخذ الشعر على عاتقه الدعوة إلى الوحدة الشعبية والوطنية النقية ، وإلى التحرر من الماضي البغيض ونسيان الذات في سبيل المثل العليا .)[40] والعمل بكل قوة وجهد ، لمواجهة كل أنواع التفرقة والتشرذم بين أبناء الوطن . وهنا نجد محمد العيد يحذر الشعب الجزائري من ذلك تحذير العارف بخفايا العدو وأتباعه من الخونة . ويقول موضحا :

قف حيث شعبك مهما كان موقـــفه أولا فإنك عضو منه منحسم
تقول أضحى شتيت الرأي منقســـما وأنت عنه شتيت الرأي منقسم
فكن مع الشعب في قول وفي عمل إن كنت بالرجل الشعبي تتسم
ولا يرقك شفـــــيف الذات مائـــــــــــعها كالمـاء فيـه وجـوه النـاس ترتسم

أعدى عدى القوم من يعزى لهم نسبا ويسمع القدح فيهم وهو يبتسم [41]

ومن خلال هذا الموقف تتجلى مقاومة محمد العيد للوجود الاستعماري الفرنسي من خلال وعيه بالواقع المزري الذي يعيش فيه الشعب الجزائري ، فيقوم بكشف مخططات العدو في نصه الشعري ، من خلال رؤية صائبة ، و معرفة واعية بالقضايا ذات الأولوية بالنسبة للفرد الجزائري في تلك الفترة . فالذي يطلع على شعر محمد العيد سيلاحظ الدور الكبير الذي لعبه شعره في استنهاض الهمم وبعث روح الجهاد في نفوس الجزائريين .

5 - **الدفاع عن الإنسانية** : يتجلى في شعر محمد العيد المقاوم ، مظهر أخر من مظاهر المقاومة وهو الدفاع عن الإنسانية مهما كان جنسها أو معتقدها . الأمر الذي يكشف عن وعي الشاعر بخطورة الاستعمار على الشعوب .

قتل الإنسان لا يـــــــــــــرضى إذا أوتي القوة إلا أن يضيما
فهو في الهيجاء مثل الوحش لا راحم طفلا ولا راع حريما
شكت الأرض إلى خالقـــــــــــــها من كريم فوقها صار لئيما

أوقد الفتنـــــــــــــة في أقطـــــــــــــارها وأبى الهدنة فيها أن تقيما [42]

فمحمد العيد يتألم بآلام كل البشر لأنه ذاق مع شعبه ويلات الاستعمار واكتوى بنار القهر والتسلط والتجبر .

وخلاصة القول :

إذا كان النص الشعري المقاوم هو نص ينبثق عن رؤية واعية بحركة التاريخ التي يتحرك من خلالها المجتمع ، لحظة إدراكه لواقعه المزري وفهمه للأسباب التي تقف وراء ذلك .

فإن نظرة الشاعر محمد العيد لم تكن مرتبطة بالواقع المعيش الذي يتخبط فيه الفرد الجزائري . بل تجاوزت ذلك إلى المستقبل ، عندما يتحقق النصر على العدو وتعود الحرية للوطن الجريح . فقد عبر بصدق عن وجدان المجتمع الجزائري المقاوم للاستعمار . وأحيا بشعره قيم الأمة الجزائرية وربطها بوعيها التاريخي . فعمق روح الوطنية في نفسية الفرد

---

[40] - أبو القاسم سعد الله دراسات في الأدب الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 ص 42
[41] - الديوان ص 371
[42] - الديوان ص 338

الجزائري . و خاض المعركة بشعره ، ولم يضعف أو يتهاون حتى تحقق النصر . ومن هنا تتضح الرؤية الخاصة بالشاعر في المقاومة . فهي رؤية تقوم على نظرة فلسفية بعيدة العمق في الواقع الاجتماعي أطرتها الطروحات الفكرية الإصلاحية ، فكانت مواقفه من واقعه . من خلال تجربته في الحياة أدرك بأن الفرد لا يمكنه تحقيق النصر على عدوه إلا إذا كان متشبعا بمصادر هويته ومدركا لحقيقة وجوده . وقد تميز شعره بنبرة القوة والتفاؤل بالنصر الذي سيتحقق في المستقبل . بعد أن عمل على تبصيرة الشعب بتاريخ أجداده المجيد . ونظرا لما يمتاز به الشاعر من حس مرهف ورقة المشاعر وصدق العاطفة فلا بد وأن يستشرف مستقبل أمته . بعد أن تحسس مصائبها وهمومها ومشاكلها ، فجاء نصه الشعري ترجمة لذلك بكل صدق .

المراجع :

1 - ديوان محمد العيد المؤسسة الوطنية للكتاب ط3/ .
2 - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ديوان المطبوعات الجامعية 95
3 - عبدالله الركبي الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية ونقدية) ديوان المطبوعات الجماعية .94
4 - صالح خرفي محمد العيد خليفة المؤسسة الوطنية للكتاب 1986 .
5 – صالح خرفي الشعر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1984
6 - محمد بن سمينة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003
7 - محمد بن سمينة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 .
8 - نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير دار العلم للملايين ط1/1981 بيروت
9 - أنور الجندي الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع مطبعة الرسالة القاهرة 1959
10 - كمال عجالي أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته وشعره ديوان المطبوعات الجامعية 1991
11 - عبد الحميد جيدة الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر مؤسسة نوفل ط1/1980 بيروت
12 - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر
13 - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر دار الجيل ط1/2005 بيروت
14 - أبو القاسم سعد الله دراسات في الأدب الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1985
15 - مجلة الموقف الأدبي ع118/1981